

## مع أم كلثوم في تونس

وقف النائب الروماني سيبيون في مجلس الشيوخ ايان مجد الامبراطورية الرومانية وهنق - يجب ان تسقط قرطاجه .

احاطته العيون بالتساؤل فمد يده في جيبه واخرج خوذة كبيرة . قال انه تقدم لتوه من قرطاجه بهذه الخوذة . وانشا يشرح خطورة وصول فاكهة قرطاجه الى روما غير ان تفسد . هذا معناه انه يمكن مناقسة روما ، ولوح النائب بالخطر وأوحى ان تقوم روما بنفسها بتصدير فواكه قرطاجه . وفحص مجلس الشيوخ الروماني نضارة الخوخة واقنع بخطورة الموضوع . وظل خطبأؤه يرددون الكلمة الشهيرة - يجب ان تسقط قرطاجه . وانتقل النداء من اصاب مجلس الشيوخ الى رؤوس القادة العسكريين وعبر النداء اليهم وسقطت قرطاجه .

لم يبق من نكبات الخوخة القديمة الا الآثار الرومانية في تونس . وهي اقدم آثارها على الاطلاق . . . بعد ما نجى الاثار العربية . . .

الطريق الى تونس من طريق الجوبسنتوق ثلاث ساعات . تونس الحديثة هي قرطاجه القديمة . وقرطاجه كلمة فينيقية تعني المدينة الجديدة . انشئت سنة ٨١٤ قبل ميلاد السيد المسيح على يد امرأة مهاجرة من اليازة طلبا لاخت بجاليلون . لك صور . اقدم الترموس المتعلقة بتاريخ قرطاجه وحضارتها هي السمار هوروس وتاريخ هوروس ، وهذه اللوحات المكتشفة في بحر على عهد الحارثه ( ١٤ ق م ) .

انقلت المدينة ابراهة . . . ومن يومها والسرارة مركزها المنتسار في تونس قريه رئيس الجمهورية بسونتها المأجدة بسنى المنجد او المحترية كما يسمونها الرهسة . الرهسة وسيلة بورقوية هي التي وجهت الدعوة لام كلثوم لغنى في تونس . الطائرة تسير في سماء صافية حتى تدخل المجال الجوى لتونس وهنا يلبث الجو نجاة ويختر .

وتستقبل العاصمة بربط الاحصالية والتك من الفخمين والسيت . . . وتزيد فخورة اللعب بين الطائرة والسحاب . وبسبب اذان الكلاب شهه فريب فلا تسبح الا كما يسبح العالم . ويحيى صوت قائد الطائرة بهذا مجونا يقول ان رسالة اسلكية قد وصلت لتونا من مطار تونس كرمب فيها لجنة الاستقبال الشصبي والرسي بام كلثوم . وتجدو لى الرسالة وسط هذا الجسر الملبس فيها بيما من روائح العطر الذي يفضله الطائرة . والفات من جالبيه الرسالة وماودت استلى بصبر الاين والنهاة في الكون .

لا اله الا انت سبحانه اى كنت من الظالمين . . . فالتبا قلوب الركاب وقالتا عظيم الطائرة المحتفة وهي ترتجت . . . ثم ذهبت العاصفة وجاءت الارض . خرجت من الطائرة مدعج الرأس وقد لسيت رسالة الترحيب التي وصلت اليها في الجو .

وقى مطار تونس القيت بفرجيسة الرسالة . اكثر من عشرة آلاف شخص يقفون وسط مست حنق كلهم بانتظار بولد حبه كرنى خارق . مهنهم جيما تحقق في سلج الطائرة الاول . . . وبلغت وجسى مهن معلوما بقسوة الجسائرية الآسرة . . . ولا تكاد ام كلثوم تظهر على سلم الطائرة حتى يشعل السيت نجاة وتكسر قوائن الاتزان ويحرك الناس سخرية مرمحب واحدة ويتسوة انفعاك واحدة . . . رجال ونساء وانطفال . . . الاى للمهوى الملوثة الراسحة التي فحق في هوى واحد . في لحظة واحدة تحوه .

سكنتي المرحبة والفات بسى خارج المطار بفر ان ابر طلى الجوارات او الجهارك او اصيف اكنه ذهبت حنقى . . . جرائى المرحبة صاميا وانقطع الاتصال باني مهن ام كلثوم . . . فلم اصرف نادا فطمت وسط هذا الزحام ولا كيف يخرجت منه ولا نادا فالت ملاح وجهها رويدا عليه . . .

ولاحلت ببالح الدعفة وجوه عديا من الناس الذين لم يمد احدكم يدى ا كلثوم ولكن مع ذلك لا يده الكك مر الهناك المستر باستها . . .

ورامت لاني . . . رقم الهما الشصبي - اسرات جسامية فتقى . . .

قد بشرت بقدمكم روح الصبا يا حلا بالزائدين ورحبا . . .

الاجتاز ، وكثرت تصرفاتها في اللحن الاصلى ، وصارت سكانها جزءا في الاغنية وانبعث امام الجمهور مجسد الاغنية المصرية في لحظة من لحظات الصراف الذى الكبير .

نحت ام كلثوم في الحفلة الاولى الاطلاق وفكرت . . . بلغ ايراد الحفل مشرين الفا من الجنيهات للجمهور الحرس . . . استمر الجمهور يحيى ام كلثوم دقائق عديدة بعد امدال الستار . . .

لم تستطع سهارتها ان تفرق الشوارع حول الاستاد بسبب الجمهور العظيم الذى سد طرقات المدينة وظل يتبع طوال ساعات للنساء الاربع ليلقى على ام كلثوم نظرة من وراء زجاج السيارة الخفى . . .

بوما بعد يوم والسؤال يزداد الحاما على فتونس . . . لماذا يحب الناس ام كلثوم كل هذا الحب لماذا يا فخرهم هذه الصورة الخاصة . . . اصبح الراء التي سمعتها في طرس هذا الحب هو ارتباط ام كلثوم بالفكرة العربية واللغة العربية . . . قول لى ان سر حبه لها انها تشبه بشركه ويكر الناس بحروبهم . . . شوه مشترك بين العرب جميعا ولا اختلاف عليه . . . ان الاذن الشرقية تستريح مهنما كان صاحبها ملقا الى التطريب . . . هذه التفلات والمفقات وهذا التصرف والحن الاصلى وهذا التالى الذى يشترك فيه الجمهور ، هذا كله شوه يميز الاذن الشرقية . . . وتزيد ام كلثوم التعبير على التطريب . . . فعدت فى الفنانة الوحيدة التي تجسج التعبير مع التطريب ، وبذلك ترضى اصحاب الاذواق على اختلاف اذواقهم . . . فقط ينبغي ان يكون المسبح عربيا ولا بد ان تطرب انه لام كلثوم . . .

جواب طيب ويقر بعض هذا الحيا . . . اللغة العربية لغة مقدسة فتونس هي لغة تقيمت من المسجد وتحمل هيرا خاصا ولها وقع مهن . . . وبهذا المعب يروح الضأ من كليات ام كلثوم . . . ولهذا السبب جن الناس من تصيد الاطلاق كما جنوا من تصرفها في الاداء . . . وينفعنى تقدير التونسيين لام كلثوم التي مجاولة اكتشاف الاغنية الشعبية في تونس ، ويحمل المانور الشصبي اسم المانوف . وهو عبارة من مجموعة من النوصلات او النويات التي تشغل طرب برتحات ورجال اندلسية وضمت مفرق مقام مهن . . . ولصحية المانوف سببه جرت العادة بالاندلس على ان يخسرو رجال الفن لكل وقت من اليوم بقاساميتا .

نادا ارادوا الاعلان عن برنامج حفلىا فغالبية اكفروا بالاشارة الى المقام الذى سيطر قوته ، وهو مقام معروف او المانوف بحسب الجزء من اليوم الذى تقام فيه الحفلة ، وليس كل مقام يصلح لكل وقت ، وليست النغمة التي تصلى للسباح بمالحة للنساء . . . جرى ذلك لارتباط علم الموسيقى بعلم الفلك من العرب .

تصديق متطع يشبه النغم . . . ثم لا وليت ان يدوب في التصديق المستر . . . ونظرت في وجوه الجالسين حولي . . . نحن في حاجة الى التعبير بالصورة . . . ويستعمل التعبير بالصورة الا لمن الشاعر او عين الكابرا السينمائية . . . وكليهما لا املكه . . . بدأت الموسيقى حقل الحنين المهيب وفرشت له بالنغم . . . الموضوع هو الاطلاق . . .

لا تظلو اداب الدنيا من ادب يقف على الاطلاق ويكى عندها . . . تخصص شعراء العربية القداس في هذا اللون وعناء احقادهم وساقوا بمراته بقولهم ان في استعادة الذكريات بيوة الحياة في الحاضر والمضى معا . . . بدأت ام كلثوم تفتى . . .

آهة واحدة من ام كلثوم وتتسمل بعدها سبعة الاف آهة من الجمهور . . . ومثل الغرار والجواب قدينا الموسيقى كانت آهة ام كلثوم وآحات الجمهور . . . وبعد الجمهور والورود يزيد من عدد الجمهور والورد يتفمس في الليل كالاسنين ولماه يحيى هو الآخر . . . والوجة التي سمعتها الاغنية موجة من الفرح . . .

الشاعر يتحدث من حبيبته . . . من حسننا الخاتم وكبرياتها الجليل . . . رؤوس الناس تتمايل مع اغناك الذرنفل . . . آهة واحدة من آحات الربيع وعرف القرنفل الحب وزاد عدده . . .

آهة واحدة طويلة معدودة ودافئسة ويتمايل كل شوه . . . ويحب كل مخلوق . . . ولم افهم قبل هذه الحفلة حتى اتصال القنان بجمهور . . .

وقرات رسائل حب عديدة على وجوه الناس حولي . . . واخترت ثلاثة وجوه اتوقل عندها ، ذات الفستان الذهبى والشعر المنسق على طريقة ماري انطوانيت . . . اوافناة ذات الاحدى مشرة غفيرة . . . لونها خبرى ويشبه جبالها الجبال المصرية البسيطة . . . تونس وسط امها وابيها ، اسابها رقيقة وانظاقرها ليست بلونة . . . لم تنزوج بعد فليس في يدها دبلة . . . وفناة اخرى تودى نظارة طبيسية سبيكة وتبدو دليذة في مدرسة ثانوية وشباب في الثلاثينات يمسك في يده مقفلا حريديا ومسمت عليه صورة لام كلثوم . . .

كانت ذات الاحدى مشرة غفيرة تحرك شفتيها مع مطلع الجسوز المصلون في الاغنية . . . وفي الاحات كانت ترفع يدها الى وجهها فتكشف اسنمها عن ارتعاشة خفيفة . . .

اما لفناة ذات النظارة الطبية فكان وجهها يشبه لوحة ليكاه الحصيد . . . وكان العلاب الذى يمسك بالتميل يلوح به ويرسل قبليات الاحجاب الطائرة في الهواء مخفيا كل اللتيات في الصالة متجها الى مصدر النغم . . . ثم يسعيده على خده ويتمايل مع النغم . . . كل واحد من الجمهور كان قصة لها اسرارها وهالها وتحيرها الخاص . . . وكان الجواب بين الجمهور وام كلثوم شيئا لا يمكن تصوره . . . ولهذا السبب اعطت ام كلثوم اداء فوق

السراخ في تونس وتحدث اللغة العربية والفرنسية . . . المقى والاحياء الشعبية فتحدث بلهجة علمية تفرده فيها القالب . . . هبون النساء واسعة وجسيلة ، واخلاط يدبر افريقها يحرب الانتفس بالترنسين وكسو الملاح بلون من الجبال الغريبة . . . الملابس خنيط من العجائب التونسية الذى الذى يقرر والمبنى جوبا الذى لا يمكن الخاؤه . . . عدد سكان تونس اربعة ملايين ونصف ، مهوش معظم السكان على قرامة الحبوب والفله وهم يسمسون الفواكه كالخوخ والبرتوق والكرىؤولة . . . اصجار الزيتون الصورة منتشرة في تونس ، وذيت الزيتون يدخل في معظم الاطعمة . . . لا تجرى العادة على شرب الماء الطبيعى على الطعام ، انما يشربون المياه المعدنية . . . الاكلات شرقية تماما وهناك اطباق تونسية كالكسكى الذى ياكلونه مع المرق والحلم ولا ياكلونه بالمسك . . . الحكم رئاسى وثقة حزب واحد وليست هناك محارفة ، فلسفة الفكر السياسي تقوم على الديمقراطية . . . تتبع المراتب مركز سناز لمن حتما ان تطلق الرجل ومن حتما ان تمل باجر بمائل اجرة . . .

كلتها هي العليا في مسائل الاواج والحب ، وليست بوانفة الاهل الا اجراء ورويتها مهن بعد الاتفاق مع كيويد . . . هذه السلطة التي للمرأة تسند هاتونين الاحوال الشخصية التي اخذت بالاتجاه في التشريع وحرمت الجمع بكثر من زوجة واحدة للرجل . . .

وقى تونس سميلتان حريقتان ومجلة للمرأة ومجلة للفترة ( التليفزيون ) . . . كل الفصل اليوم تصدر في تونس وفى صلتها الاول صور استقبال ام كلثوم ، وفى صفحاتها الداخلية قصة حياة ام كلثوم ابتداء من ايام ولغتها على الشيخ ابو العلاء الى ان فرمت على عرض الاغنية العربية . . .

الحفلة الاولى لام كلثوم في تونس كانت من الحاجة القاتية بعد المطار . . . استاد مستوف بقم سبعة الاف مقعد ، في نهايته منصة طلع حولها ٢٨٠ الف زهرة من زهور القرنفل . الصالة تنقسم الى ثمانية اقسام ، والبلكون ينقسم الى عشرة مجموعات من الكراسى ، وليس هناك بقعد خال واحد ، وعدد النساء يزيد من عدد الرجال ، وملابس النساء تتراوح بين احداث فساتين باريس الى اقدم ميايات المغرب العربي . . . واغلب جمهور الحاضرين من الشباب وفى مقدمة الصالة مجلس رئيس الجمهورية التونسية تترينته ، وامامها على الارض ابتها الصغرة . . . كل كتاب الدولة ( وراثها ) في تونس هنا ، كل المحافظين او الولاة كسما يسونهم بجلسون . . . كان الحفل الاول يضم كل المستوفين في الدولة على وجسه التقريب . ثم بسمت الشصبي فجأة وتظهر ام كلثوم وسط زهور القرنفل في طريقها الى المنصة . . .

بدأت موجة التصديق في التاسعة والنصف . . . واستمرت خمس دقائق . . . ونحن صفت بداما بالبلكون بشكل جديد